أثر النبوغ والعبقرية

فى الأدب والفن

عندما نجول بين بدائع الفن وآيات الأدب ، ونستمتع بما فيهما من روائع تذهل اللب وتنقل النفس لحظات إلى ما وراء عالم الحس ، نجد بعد أن نفيق من نشوة الإعجاب ونؤوب من النقلة الممتعة ونرجع إلى نفوسنا نستخبرها أننا نستطيع أن نفرق بين نوعين من الفن فى هذه التحف النفيسة والآثار الباقية ، أحدهما فن النبوغ والآخر فن العبقرية ، ولكل منهما من الملامح والسمات ما قد يهديك فى سهولة أو فى صعوبة إلى معرفته والوقوف على نوعه ، ويرجع سبب هذا الاختلاف إلى الفرق المستقر وراء ذلك بين طبيعة العبقرية وطبيعة النبوغ ، فإن خيال هذا الفرق ينعكس ويبدو أثره بأتم جلاء فى طرف الأدب وبراعات الفن .

والعبقرى فى الكثير من حالاته مثل الصبى الأهوج الغرير قلق النفس نافر الطبع ، تارة يستفزه الطرب وأخرى تراه رازحاً تحت عبء الأحزان الثقال ، فأحواله متناقضة وميوله متضاربة ، وهو ولوع بالحياة حريص عليها ، ولكنه أبداً يشكوها ، ويتبرم بالناس ولكنه يرثى لضعفهم ، وهو دائم التنقل بين الجنة والنار ، جوال الفكر فى الخير والشر . والعبقريون فى العادة لا يشعرون بنفوسهم كل الشعور ولا يعون نتائج أعمالهم كل الوعى ، وقد يتخلل بعض أعمالهم عنصر من السخف والعناد يجعلنا نرضى بإنسانيتنا المتواضعة ، ونطمئن إلى أن الإنسان مهما تعالى فى مدارج الفهم والدراية فإنه بعيد عن مكانة الآلهة وكمال الأرباب .

وإلى جانب العبقريين يقف النوابغ ، وهم يستفيدون من سعى العبقريين

ويستثمرون جهودهم ، وهم – وإن كانوا أقل قوة من هؤلاء الجبابرة المردة – أدق فطنة وأوسع حيلة وأكثر قابلية للتهذيب والإصلاح ، فعقولهم مرنة ونفوسهم هادئة ، ولهم من الحذق وسهولة الفهم ما يمكنهم من تجويد أى شىء يتعاطونه .

والفرق بين العبقرية والنبوغ هو أن العبقرية تفوق عميق وأصيل ، والنبوغ تفوق مكتسب سطحى . بل الفرق أكثر من ذلك ، قال البحاثة الإيطالى «سيرا» «الفرق بين النبوغ والعبقرية هو أن النبوغ حالة دائمة ومستوى أرفع من المستوى العادى ، ومظاهره سرعة الإحساس والإدراك ، وسرعة الاستجماع والنفاذ والزكانة ، والنابغة يجيد عمل المألوف والمتعارف ويسير سيراً حثيثاً فى الطرق المعبدة المطروقة ، ولكنه يتعثر فى النواحى المجهولة ، بل هو يكره المجهول ولا طاقة له عليه ، أما العبقرى فهو لا يستريح إلا إذا سار فى الطرق غير المطروقة يستكشف ويجرب ، فالمجهول يستغويه ، وهو يؤثر أن يضل طريقه وينقطع منه الرجاء فى البوادى المجهولة على أن يسلك الطريق المألوف ، من أجل ذلك قد يشتهر النابغة ويخمل العبقرى ، والأول يجيد ما يفعله الكثيرون فهم من ثم قادرون على إدراك تفوقه ، ولكن العبقرى يبدههم بشىء لا قبل لهم به ولا سابق عهد لهم بمعرفته ، ولذا لا يقدره ويدرك تفوقه إلا لفيف من ذوى العقول السامية ، ومن مميزات العبقرية الحساسية العميقة ، وعدم الصبر المستمر على ماحولها من الأحوال وعدم الاقتناع الدائم بحالتها ، والنزوع الذى لا نهاية له إلى حياة أسمى ، وليس عقل العبقرى آلة منظمة ، وإنما هو ميزان غير مستقر» .

هذا رأى البحاثة سيرا وأضيف إليه أن من أكبر مميزات العبقرى أنه يلقى نفسه بكليتها فى كل ما يعمل ، فأعماله وآثاره وأقواله هى عصارة نفسه وخلاصة حياته وتجاربه ، وأثره سواء فى الفن أو فى أى مظهر من مظاهر الخلق والتأثير أثر

حى عميق ، وهو تستغرقه الفكرة فلا ينى عن الحفر فى أطباق ثراها ، والتحليق فى أجواز فضائها ، غير ناظر إلى غرض آخر لأن عقله منسرح من سلطة الأنانية الضيقة ، غير خاضع لأحكام المصالح الشخصية والفوائد المادية ، ويستوى فى ذلك «نيوتن» وهو يكد ذهنه فى استكشاف قانون الجاذبية ، «وشكسبير» وهو يسح بقصائده العصماء ويرسل رواياته الخالدة . وقد ترى فى مخلفات كبار النوابغ ما يوضع إلى جانب أفخر آثار العبقرية ، ولكن حتى فى الآثار التى ارتفعوا فيها إلى الذروة وناصوا أعنان الكمال لا تلمح التماسك الوثيق والوحدة الحية وطابع البساطة والإخلاص وطلاوة الجدة التى تمتاز بها آثار العبقرية ، بل نستطيع أن نرى فارقاً بين الرجل وعمله ، ونتمثل الفنان وهو يفتن فى أساليب خلق التأثير وإهاجة المشاعر والأخيلة وينحت الكلمات ويصقل التراكيب ويبدل فى الألوان والخطوط ، ومنشأ الوحدة الحية والالتئام التام فى آثار العبقريين هو أن الرجل قد تسرب فى آثاره حتى تكاد تسمع خلالها نبض قلبه ، ودبيب خواطره وهواجس نفسه .

على أننا مهما بالغنا فى إكبار فن العبقريين وغلونا فى إيثاره على فن النبوغ ، فلا محيص لنا عن أن نشير إلى صفة واضحة فى أكثر مخلفات العبقريين إلى حد كبير وهى صفة التفاوت وعدم الاطراد على نسق واحد ، وما أصدق بشار وأجزل نصيبه من العمق والإصابة فى قوله : «الشاعر مثل البحر يقذف مرة بالدرر وأخرى بالجيف» ، ولوأنه قصر الفكرة الشاسعة على العبقرية الشعرية ، وقد نرى فى آثار العبقريين الرائع الجليل إلى جانب المضحك السخيف ، ويرجع ذلك إلى أن العبقرى يستمد من الوحى ، وقد لا يسعفه فى بعض الأوقات ، وليس هو دائماً فى نوبة الحمى والتوقد ، فقد تفتر حرارته وينقطع وحيه ، فيعمد إلى أساليب النوابغ ويسلك طرائق الوضاعين وأهل الصنعة ، وقد

لايكون له براعتهم وحذقهم ، فيتخلف عن شأوهم ويقصر عن مداهم ، فضلاً عن ذلك فإن قلق العبقرى واستطاراته الكثيرة على أجنحة الوحى يجعلانه عاجزاً عن إتقان التفاصيل وإدراك الصغائر ، وهو يقيس بالمقياس الكبير ويسير بخطوات المارد العملاق إذا دب غيره دبيب النمل وزحف زحف السلاحف ، والعبقرى نافذ موفق فى الجوهريات والكليات الشاملة ، وحذر ومنطق فى فكرته العامة المسيطرة وإن كنت قد تراه متناقضاً فى التفاصيل وغير منطق فى الجزئيات ، ففى أعمال العبقريين متسع كبير للنقد والمؤاخذة ، وكم من ناقد قدير قد تقلد سلاحه واستلأم درعه وحمل حملة صادقة على آثار العبقرية ، فعاد أدراجه بعد أن هدم جانباً من التفاصيل ، وزعزع أركان بعض الجزئيات دون أن ينال شيئاً من الفكرة الكلية المتعالية الحصينة .

وجو النبوغ هادئ معتدل ، أما جو العبقرية فإنه متقلب قد تلاقيك فيه الأنواء والعواصف ، وتسير من النبوغ فى أرض ميثاء وطريق ممهد ، وأما العبقرية فتسير منها بين ارتفاع وصبب فى طريق حافل بالصخور المركومة ، وآثار العبقرية أشبه بالغابة المتأبدة تنمو نموها شاذة مطلقة لا معترض لحريتها ولا كابح لغلوائها ، تلاقيك فيها الأشجار الفارعة المتطاولة والدوح المتسامى الباسق والنبت الأثيث الملتف ، ويحسر الطرف من الجولان فى شواهقها الشامخة وأبعادها المترامية ، وتعترينا إزاءها الرهبة ونستشعر العجز ، أما آثار النوابغ فهى فى اتزانها وصقلتها أشبه بالحدائق الأنيقة البديعة التنسيق ، أشجارها مشذبة وأزهارها مقلمة وطرقها مرصوفة بالحصباء ، ويعجبك نظامها ويمتعك ويهب عليك نسيمها حاملاً روائح الورود وأرج الأزهار .

وهناك سرعان يذهلنا عن معايب العبقريين وينسينا محاسن النوابغ ، ويجعلنا نؤثر العبقرية ونضعها فى مكانة أسمى من مكانة النبوغ ، برغم ما فيه من براعة

واتزان وكمال وإتقان ، وذلك السر هو قوة شخصية العبقرى الغلابة الجاذبة سواء ظهرت فى الحلل الفاخرة أو فى الأطمار البالية ، فهى تهز النفس من أعماقها وتثير رواكدها وشجونها ، وفى العبقرية سحر تتحرك له الجوامد وتنطق الصوامت وتتجلى الأسرار والغوامض ، وقد يكون العبقرى رديء الفن خشن التعبير ، ولكن شخصيته القوية الممتازة تضيء وتشرق من سحائب فنه وتظهر سمات نفسه الموهوبة ضاحية متبلجة . وقد لا تزدهيك أعمال صحيحة الوضع مهندمة الشكل خارجة من مصانع النبوغ ، لأن أهم ما يسيطر على الآثار الفنية ويطبعها بطابعها هو شخصية الفنان .

وقوة الشخصية هى سر إعجابنا بكبار شعراء الدراما والروائيين والقصصيين الذين تنحصر براعتهم فى تشبعهم بالشخصيات التى يصورونها وتسربهم فيها وتظهر قوة شخصيتهم فى هذه القدرة الكبيرة على الملاحظة والنفاذ إلى أعماق الإنسانية الذى مكنهم من أن يجسموا تجاربهم تجسيما حيا ، وليست تعجبنا الأشخاص أكثر مما تروعنا من ورائهم العبقرية التى نفخت فيهم حياة من القوة والتأثير بحيث انطبعت صورهم فى نفوسنا ورسخت فى ذاكرتنا ، فالشخصية إذن فى مقدمة العوامل المؤثرة فى الفن ، بل تكاد تكون هى محك الجودة وفيصل التمايز ، وللفليسوف الإيطالى النقادة «كروتشه» رأى يطابق ذلك ذكره فى عرض إحدى محاضرته قال : «إن الآثار الفنية يجب أن تعبر عن شخصية ، ويجب على النقد أن يقرر هل الشخصية موجودة أو لا ؟ ، والأثر الفنى الناقص هو عمل مضطرب لم تبرز فيه شخصية ظاهرة ، وإنما ظهرت شخصيات متدافعة متزاحمة بالمناكب أى لا شيء ، والذى يروعنا فى أعمال الفن ليس صفاء التعبير والانسجام وحدهما ، وإنما الذى يفيض سرورنا وينبض قلوبنا هو الحياة والحركة والعاطفة والحرارة وشعور الفنان ، وهذا هو المقياس الوحيد الذى يمتاز

به العمل الفنى الصادق من العمل الفنى الكاذب ، فحيث يوجد الشعور والعاطفة نتسامح كثيراً ، ولكن لا سبيل للتسامح حيث لا يوجدان ، وإن أحفل الناس عقلا وأعمقهم فكراً وأبرعهم ثقافة واستنارة قد لا يمنعه ذلك كله من أن يكون أثره الفنى فاتراً ، وكذلك ليست ثروة الخيال ضماناً للبراعة الفنية ، ولسنا نطلب من الفنان الماهر أن يبهرنا علمه أو أن يهولنا ثراء خياله ، وإنما نطالبه بأن تكون له شخصية تستشعر الأرواح الحرارة عند الدنو منها ، والمطلوب هو الشخصية بغض النظر عن الوجهة الأخلاقية ، فلتكن باسمة أو حزينة ، جادة أو ساخرة ، متحمسة أو فاترة ، بارّة كريمة أو خسيسة لئيمة ، وإنما يجب أن تكون روحا ، ومن حق النقد أن يقصر عمله على البحث عن شخصية الفنان فى الأعمال الفنية وعن نوع تلك الشخصية ، وقد قيل كثيراً ضد ذلك ، وزعموا أن الفنان الماهر تختفى شخصيته خلف عمله على عكس الفنان المتخلف الذى يظهر أثر شخصيته فى عمله ، وقيل كذلك إن الفنان يرسم حقيقة الحياة ومن ثم يجب ألا يشوه الصورة بإدخال آرائه وحشر أحكامه ومشاعره الشخصية البحتة ، وإن عليه أن يصور دموع الإنسانية لا دموعه ، وبذلك صار « فقدان الشخصية » ميزة الفن وعنوان الإجادة ، والتناقض هنا ناشئ من عدم تحديد معنى الشخصية ، فقد كان ذلك موجهاً إلى شخصية الفنان اللاأدرية التجريبية لا إلى شخصيته المثالية التلقائية التى يتكون منها العمل الفنى ، وقد كان الفنان الذى لا يستطيع أن يصور عمق عاطفة التقوى أو عاطفة حب الوطن يضيف إلى خيالاته العديمة اللون تأثيرات مسرحية مغتصبة ظاناً أنه بذلك يستفز الشعور ، وكذلك يحشر بعض الممثلين والخطباء فى الأعمال الفنية أشياء خارجة عنها » .

ولننتقل قليلاً من التعميم إلى التخصيص ، فنوازن بين شاعرين عاشا

متعاصرين وتزاحما بالمناكب فى بلاط سيف الدولة ، وهما المتنبى والسرى الرفاء فالمتنبى مثل واضح للعبقرية والسرى الرفاء يمثل النبوغ فى أسمى درجاته ، فهو قريع حلبة أهل الصنعة ، وهو يبز المتنبى فى الاقتدار على ضروب الشعر والتصرف فى فنونه مع رشاقة المعرض وسهولة المأخذ وحسن التأتى وإن كان المتنبى يفوقه فى متانة الشعر وقوة أسره . ولكننا بعد أن نخوض أوشال السرى الرفاء ، ونجازف فى عباب المتنبى ننسى براعات السرى الرفاء ، لأن شخصية المتنبى الساحرة تسكر مشاعرنا وتذهل حواسنا وتنقلنا إلى عالم أسمى من الخواطر والإحساسات . ولكن بعد ذلك كله هل ننكر العبقرية على شاعر فحل مثل البحترى لانسجام شعره واطراده على نسق واحد من الحسن والسلاسة ولهذا الجمال الفنى الشائع فى قصائده ؟ كلا ، فقد يكون التفاوت فى بعض الحالات قرين سقوط القدرة وخمود القريحة ، وهناك طراز من العبقريات قائم على توازن الملكات واستواء المواهب ، ولست أشك فى أن البحترى كان إلى حد كبير مثلا بارعاً لهذا الطراز من العبقرية .